تفسير كلّ آية بجملة

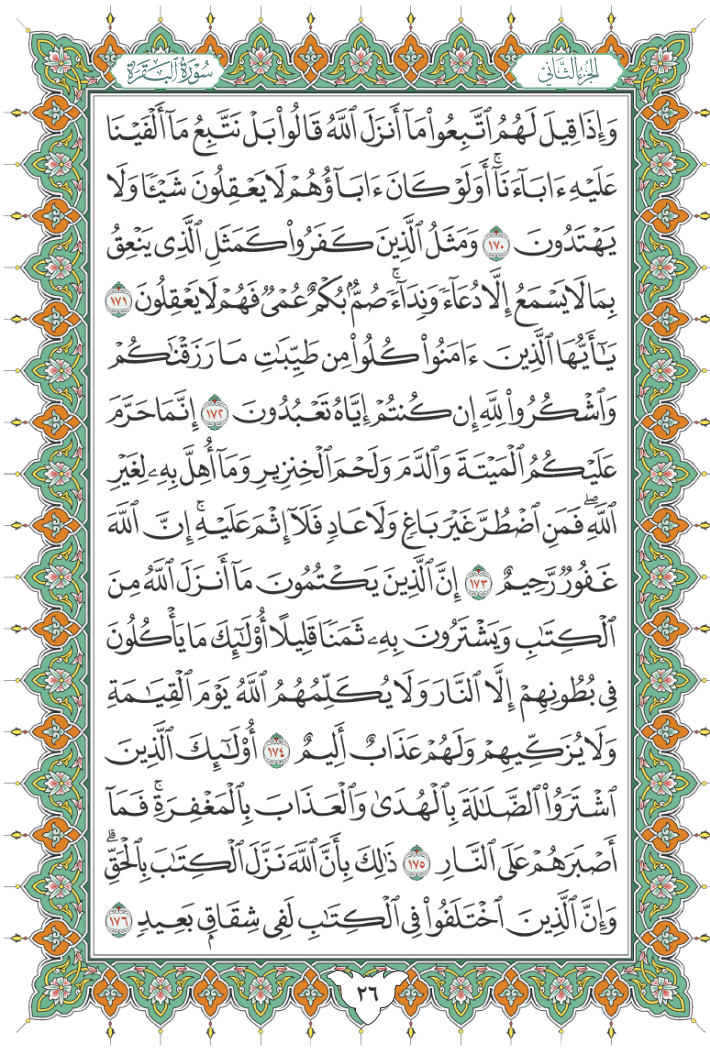

﴿١٧٠﴾ وقد اعتاد الضّالّون عن سبيل الهدى أن يتمسّكوا بما توارثوا عن آبائهم في العقيدة والعمل، وإذا دعوا إلى ما جاء من هدي الله قالوا: لا نعدل عمّا وجدنا عليه آباءنا، ومن أكبر الجهل ترجيح اتّباع طاعة الآباء على إطاعة الله واتّباع هداه، فكيف إذا كان آباؤهم لا يعقلون شيئًا من الدّين ولا يستنيرون بنور الهداية والإيمان؟

﴿١٧١﴾ وإنّ مثل من يدعو أولئك الكافرين الجاحدين إلى الحقّ والهدى - فلا يستجيبون له ولا يفقهون ما يدعوهم إليه - كمثل راعي الغنم يناجيها، فلا تفقه منه شيئًا ولا يقرع سمعها إلا الصّوت ولا تعي غيره، فهم كذلك عن الحقّ صُمّ الآذان، عُمْي البصائر، خُرْس الألسنة، لا ينطقون بخير، ولا يصدرون عن عقل.

﴿١٧٢﴾ لقد أبحنا للنّاس كلّ حلال خلقناه لهم في الأرض، ونهيناهم أن يتّبعوا خطوات الشّيطان، فإنْ فعلوا اهتدوا، وإن أبوا فإنّا نخصّ المؤمنين بهدايتنا ونبيّن الحلال والحرام، فيا أيّها الذين آمنوا أبيح لكم أن تأكلوا من لذيذ الطّعام الطيّب غير الخبيث، فاشكروا الله على ما أولاكم من نعمة التّمكين من الطيّبات وإباحتها، ومن نعمة الطّاعة والامتثال لأمره لتتمّ عبادتكم.

﴿١٧٣﴾ وليس المحرّم ما زعمه المشركون وما زعمه اليهود، وإنّما المحرم عليكم أيّها المؤمنون الميْتة التي لم تذبح من الحيوان، ومن الدّم المسفوح، ومثله في التّحريم لحم الخنزير، وما ذكر على ذبحه اسم غير الله من الوثن ونحوه، على أنّ من اضطّر إلى تناول شيء من هذه المحظورات لجوعٍ لا يجد ما يدفعه غيرها أو لإكراه على أكله فلا بأس عليه، وليتجنّب سبيل الجاهليّة من طلب هذه المحرّمات والرّغبة فيها ولا يتجاوز ما يسدّ الجوع.

﴿١٧٤﴾ كان من بعض العالِمين بما أنزل الله، فريقٌ يُخفي بَعْضَ الوحي لقاء عَرَضٍ من أعراض الدّنيا، فاليهود كتموا كثيرًا ممّا جاء في التّوراة من نعت الرّسول، خشيةَ أن يُسْلِم أهل ملّتهم فيزول أمرهم وتضيع مكاسبهم ولذيذ مطاعمهم، وإنّ مطاعمهم من هذا السّبيل لهي كالنّار يأكلونها، لأنّها ستقودهم إلى النّار، وسيُعرض الله عنهم يوم القيامة، ولا يطهّرهم من دنسهم، وأمامهم عذاب شديد موجع.

﴿١٧٥﴾ وأولئك هم الآثمون الذين اختاروا الضّلالة على الهدى، فاستحقّوا العذاب في الآخرة بدل الغفران، فكانوا كمن يشتري الباطل بالحقّ، وما فيه ضلال بما فيه هداية، وإنّ حالهم لتدعو إلى العجب، إذ يصبرون على موجبات العذاب ويستطيبون ما يؤدّي بهم إليه.

﴿١٧٦﴾ ولقد استوجبوا ما قُدّر لهم من الجزاء لكفرهم بكتاب الله الذي أنزله بالحقّ والصّدق، ولقد اختلفوا فيه اختلافًا كبيرًا، دفع إليه حبّ الجدل ومجانبة الحقّ والانقياد للهوى، فحرّفوه وأفسدوه وفسّروه بغير معانيه.

الآيات من 168-171

تحليل الطيّبات ومنشأ تحريم المحرّمات

أهمّيّة الأكل الحلال وخطورة خطوات الشّيطان

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾﴾.

أسباب النزول والمناسبة

سبب نزول الآية (١٦٨): قال الكلبيّ: نزلت في ثقيف وخزاعة وعامر بن صعصعة، حرّموا على أنفسهم أشياء من الحرث والأنعام، وحرّموا البحيرة والسّائبة والوصيلة والحامي[١].

سبب نزول الآية (١٧٠): عن ابن عبّاس ﷺ قال: دعا النّبيّ ﷺ اليهود إلى الإسلام، ورغّبهم فيه، فقال له رافع بن خارجة ومالك بن عوف: بل نتّبع ما وجدنا عليه آباءنا، فهم كانوا خيرًا وأعلم منّا[٢].

المناسبة: بعد بيان أنّ أوضاع الشّرك خبيثة المنافع، أمر الله بالطيّب النّافع، ولمّا أباح الله تعالى لعباده أكل ما في الأرض من الحلال الطيّب، وكانت وجوه الحلال كثيرة، بيّن لهم ما حرّم عليهم[٣].

المعنى العام

يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾.

لمّا بيّن تعالى أنّه لا إله إلا هو، وأنّه المستقلّ بالخلق، بيّن لنا أنّه الرّزّاق لجميع خلقه، فذكر في مقام الامتنان أنّه أباح لهم أن يأكلوا من جميع ما خلق لهم في الأرض من نباتها ممّا يستطاب أكله، وحيواناتها إلا ما حرّمه عليهم، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ في حال كونه حلالًا من الله طيّبًا، مستطابًا في نفسه غير ضارّ للأبدان

(١) ذكره الواحديّ في أسباب نزول القرآن، عن أبي صالح، رقم: ٤٤، ج١، ص٥٢.
(٢) ذكره الثعلبيّ في تفسيره، عن ابن عبّاس، باب: سورة البقرة: الآيات ١٦٨-١٧٦، ج٢، ص٣٩.
(٣) ذكره الزحيليّ في التفسير المنير، باب: التفسير والبيان، ج٢، ص٧٢.

ولا للعقول، قد انحلّت عنه التّبعات، وزالت عنه الشّبهات، مستلذًّا يستلذّه الطّبع، ويستحسنه الشّرع. ونهاهم عن اتّباع خطوات الشّيطان ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ وهي طرائقه ومسالكه، فيما أضلّ أتباعه فيه وزيّنه لهم في جاهليّتهم، فتحرّموا برأيكم ما أحلّ الله لكم، كالبحيرة والسّائبة والوصيلة والحامي، وبعض الحرث الذي جعلتموه للأصنام، فإنّ ذلك من تزيين الشّيطان. قال رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربّه، "وإنّه قال: إِنَّ كُلَّ مَالٍ نَحَلْتُهُ عِبَادِي، فَهُوَ لَهُمْ حَلَالٌ"[1]، وقال ﷺ: ﴿وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ﴾[2].

والحلال الصّافي ما لم ينسَ مُكْتَسِبُه الحقَّ في حال اكتسابه، فكلّ معصية لله وكلُّ ما يحملك على نسيان الحقّ أو عصيانه فهو من خطوات الشّيطان. ومن خطوات الشّيطان أكل الحرام، فإنّه يقوى على من أكل من مال حرام، ونقول: من أكل الحرام عصى الله شاء أم أبى، ومن أكل الحلال أطاع الله شاء أم أبى. قال رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنَ الْإِنْسَانِ مَجْرَى الدَّمِ﴾[3].

﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ تنفير عنه وتحذير منه، فمن شأن العدوّ الخداع والغرور، فإنّما يأمركم بما يسوء وجوهكم من الذّنوب، وما يُرْديكم من قبائح المعاصي والعيوب، وأن تقولوا على الله ما لا علم لكم به من تحليل الحرام، أو تحريم الحلال، أو ادّعاء الولد أو الصّاحبة في جانب الكبير المتعال، ومن تحريم قيادة السّيّارة للنّساء، ونصرة الظّالم لأنّه من الأقارب، وشهادة الزّور... قال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾[4] وقال ﷻ: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾[5].

وقوله: ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ﴾ أي إنّما يأمركم عدوّكم وهو الشّيطان بالأفعال السيّئة، وأغلظ منها الفاحشة كالزّنا ونحوه، وأغلظ من ذلك ﴿وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ هو القول على الله بلا علم، فيدخل في هذا كلّ كافر وكلّ مبتدع أيضًا.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾.

يقول الحقّ ﷻ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ﴾ أي لهؤلاء المشركين من كفّار العرب ﴿اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللهُ﴾ على رسوله من التّوحيد، واتركوا الأنداد له والأمثال وما أنتم عليه من الضّلال والجهل، وتحريم الحرام وتحليل الحلال، ﴿قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ من عبادة الأصنام، وارتكاب المعاصي والآثام. قال تعالى منكرًا عليهم تقليدهم الأعمى، ﴿أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ﴾ الذين يقتدون بهم ويقتفون أثرهم جهلةً ﴿لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا﴾ من الدّين ﴿وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ ولا يتفكّرون في سبيل المهتدين، فلا فهم لهم ولا هداية!

---

(١) رواه أحمد في مسنده، عن عياض بن حمار، حديث رقم: ١٨٣٣٨، مسند: الكوفيين، مسند: حديث عياض بن حمار، الحديث إسناده صحيح.

(٢) رواه مسلم في صحيحه، عن عياض بن حمار، حديث رقم: ٢٨٦٥، كتاب: الجنّة وصفة نعيمها وأهلها، باب: الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنّة وأهل النار.

(٣) رواه مسلم في صحيحه، عن أنس، حديث رقم: ٢١٧٤، كتاب: السلام، باب: بيان أنّه يستحبّ لمن رئي خاليًا بامرأة وكانت زوجته...

(٤) سورة فاطر، الآية: ٦.

(٥) سورة الكهف، الآية: ٥٠.

﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاء وَنِدَاء صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾﴾.

يقول الحقّ ﷻ: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ في انهماكهم في التّقليد والجهل مع من يعظهم ويدعوهم إلى الله، ﴿كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْمَعُ﴾ كمثل الرّاعي الذي يرعى البهائم، وينعق عليها ليزجرها أو يدعوها إلى ما يرشدها فلا تفقه ما يقول ولا تفهمه، ﴿إِلَّا دُعَاء وَنِدَاء﴾ فإذا سمعت النّداء رفعت رؤوسها ولم تعقله، ثمّ عادت إلى مراعيها فلا تسمع من الرّاعي يزجرها إلا صوته، وكذلك الكفّار إذا دعاهم داع إلى التّوحيد لا يلتفتون إليه، ولا يفقهون ما يقول لهم، كالبهائم أو أضلّ، وهم أصحاب التّقليد والحقد الأعمى.

أو مثل الذين كفروا في دعائهم الأصنام التي لا تسمع ولا تعقل، كمثل النّاعق بغنمه، فلا ينتفع من نعيقه بشيء، غير أنّه في عناء وتعب من دعائه وندائه، ثمّ وصفهم بالصّمم والبكم والعمى مجازًا، فقال: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾ فهم صمٌّ عن سماع الحقّ فلا يعقلونه، بكمٌ عن النّطق به فلا يتفوّهون به، عميٌ عن النّظر إلى أسبابه ورؤية طريقه ومسلكه، ﴿فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ﴾ شيئًا ولا يتدبّرون[1].

لطائف الإشارات للسّلوك والتّزكية في الآيات

ما يستخلص من الآيات

في العقيدة

من هدي الآيات:

١. الحلال ما أحلّه الله، والحرام ما حرّمه الله تعالى فلا يستقلّ العقل بشيء من ذلك.

٢. إنّ للشّيطان خطوات، إذ يوسوس خطوة بخطوة وينصب المكائد ليوقع العبد في حبائل مصايده، ولو علم الإنسان ذلك لما أقدم على المعصية.

٣. إنّ الأكل من المال الحلال ينير القلب ويعين الإنسان على العمل الصّالح، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾[2]. الأكل من المال الحرام يظلم القلب ويعين الشّيطان على الوسوسة بالمعاصي، كما أنّه أحد أهمّ أسباب عقوق الأولاد لوالديهم. فعن رسول الله ﷺ، قال: «وَلَا يَكْسِبُ عَبْدٌ مَالًا مِنْ حَرَامٍ، فَيُنْفِقَ مِنْهُ فَيُبَارَكَ لَهُ فِيهِ، وَلَا يَتَصَدَّقُ بِهِ فَيُقْبَلَ مِنْهُ، وَلَا يَتْرُكُ خَلْفَ ظَهْرِهِ إِلَّا كَانَ زَادَهُ إِلَى النَّارِ»[3].

٤. الأكل من الحلال سبب قبول الأعمال الصّالحة والعبادات، وقد جاءت الأحاديث النّبويّة لتؤكّد أهمّيّة تحرّي الحلال في المطعم والمشرب، لأنّه ينير القلب ويرقّقه، ويجلب الخشية من الله والخشوع لعظمته وجلاله، وينشّط الجوارح للعبادة والطّاعة، ويزهّد في الدّنيا ويرغّب في الآخرة، وهو سبب قبول الأعمال الصالحة. قال رسول الله ﷺ: «أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ اللهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا»[4].

٥. الأكل من الحلال سبب استجابة الدّعاء، فيردّ دعاء آكل الحرام ولا تقبل منه العبادات، وقد جاء عَنِ ابْنِ عبّاس رضي الله عنهما

(١) ذكره ابن عجيبة في البحر المديد، باب: سورة البقرة، الآية: ١٧١، ج١، ص٢٠١.
(٢) سورة المؤمنون، الآية: ٥١.
(٣) رواه أحمد في مسنده، عن عبد الله بن مسعود، حديث رقم: ٣٦٧٢، مسند: المكثرين من الصحابة، مسند: عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه.
(٤) رواه مسلم في صحيحه، عن أبي هريرة، حديث رقم: ١٠١٥، كتاب: الزكاة، باب: قبول الصدقة من الكسب الطيب.

قَالَ: "تُلِيَتْ هَذِهِ الْآيَةُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا﴾[1] فَقَامَ سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، ادْعُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مُسْتَجَابَ الدَّعْوَةِ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «يَا سَعْدُ أَطِبْ مَطْعَمَكَ تَكُنْ مُسْتَجَابَ الدَّعْوَةِ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، إِنَّ الْعَبْدَ لَيَقْذِفُ اللُّقْمَةَ الْحَرَامَ فِي جَوْفِهِ مَا يُتَقَبَّلُ مِنْهُ عَمَلَ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، وَأَيُّمَا عَبْدٍ نَبَتَ لَحْمُهُ مِنَ السُّحْتِ وَالرِّبَا فَالنَّارُ أَوْلَى بِهِ»[2].

٦. وجوب طلب الحلال والاقتصار على العيش منه ولو كان ضيّقًا قليلًا.

٧. حرمة اتّباع مسالك الشّيطان وهي كلّ معتقد أو قول أو عمل نهى الله تعالى عنه. واعلم أنّ للشّيطان نقاطًا ثلاثًا يركّز عليها، وهي أمور أقام عمادها أغلب المسلسلات التّلفزيونيّة والعروض السّينمائيّة وهي: السّوء والفحشاء وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون.

٨. الشّيطان يأمر بالسّوء والفحشاء:

١) أمّا السّوء فهو العداوة والبغضاء وما ينتج عنه من جرائم كالقتل والسّرقة وأنواع الإساءات.

٢) والفحشاء هو الزّنا والخنا واللّواط وما يتعلّق بالجنس من حرام ككشف للعورات والعلاقات المحرّمة.

٣) أمّا الثّالثة فهي أن تقولوا على الله ما لا تعلمون، وهي سوء المعتقد بالله تعالى وعالم الأسباب، وسوء المعتقد بالقضاء والقدر.

٩. حرمة تقليد من لا علم له ولا بصيرة في الدّين.

١٠. المطلوب اتّباع أهل العلم والأخذ بأقوالهم وآرائهم المستقاة من الوحي الإلهي- الكتاب والسّنة-.

في الأمر والنّهي

العمل بالآيات:

احرص على ترك التّقليد الأعمى، واحرص على اتّباع الدّليل الصّحيح، ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾. ونبّه أولادك وأحبابك من خطورة التّقليد الأعمى الذي يعرف في زماننا بعبارات مثل: Trend وتقليد المشاهير.

طريق التقليد الأعمى:

بيان طريق التّقليد الأعمى المزيّف المرفوض، وهو ما يسلك مسالك الشّكوك والأوهام والتّقاليد العمياء.

قد تسلك المعتقدات إلى قلوب النّاس طريق الشّكوك، أو الأوهام والخيالات، فتصبح عقائد في أنفسهم، ولها نفس التّأثيرات السّابقة، دون إدراك حسّي، أو حجّة عقليّة صادقة، أو إشراق روحي واضح، أو ظنون غالبة، وإنّما تتمركز في مركز الاعتقادات الفعّالة تحت تأثير وهم برّاق، أو خيال محبّب - وهذا لا يكون بحال مسلكًا صحيحًا ترتضيه العقول السّليمة، بل هو مسلك زائف باطل - أو تحت تأثير تقليد محض من التّقاليد غير المبصرة. كقولهم فيما حكى الله عنهم

(١) سورة البقرة، الآية: ١٦٨.

(٢) رواه الطّبرانيّ في المعجم الأوسط، عن ابن عبّاس، حديث رقم: ٦٤٩٥، كتاب: الميم، باب: من اسمه: محمد.

في سورة الزخرف: ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ﴾[1]. وهذا المسلك أي مسلك التقليد في العقائد، مسلك زائف باطل أيضًا، لأنّ المقلّد قد أعدّ نفسه كي يسلك سنّة التقليد بعصبيّة ممقوتة، سواء أكان من يقلّده عالمًا أو جاهلًا، محقًّا أو مبطلًا، منصفًا أو ظالمًا. لذلك نعى الله على المقلّدين وذمّ طريقهم بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾.

في الأخلاق والآداب

التوجيهات:

- من أولى خطوات الشّيطان: أكل الحرام؛ كما وقع لأبينا آدم عليه السلام ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾﴾.
- المؤمن يحرص على اتّباع الدّليل الصّحيح من الكتاب والسّنّة، ويُعرض عن اتّباع الهوى. قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾[2].

من الأخلاق المحمّديّة: لا تُقَلِّدْ غَيرَكَ تقليدًا أعمى.

في السّيرة والشّمائل

إنّ تربية الأولاد من أعظم الواجبات التي حثّ الشّرع عليها، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾[3]، فتكون وقايتهم من النّار بتعليمهم وتأديبهم وتربيتهم على العمل بأحكام الشّريعة فعلًا وتركًا.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: "أَخَذَ الحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ رضي الله عنهما، تَمْرَةً مِنْ تَمْرِ الصَّدَقَةِ، فَجَعَلَهَا فِي فِيهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: "كِخْ كِخْ" لِيَطْرَحَهَا، ثُمَّ قَالَ: ((أَمَا شَعَرْتَ أَنَّا لَا نَأْكُلُ الصَّدَقَةَ))"[4].

نرى في هذا الحديث أنّ النّبيّ صلى الله عليه وسلم أخرج اللّقمة من في حفيده البالغ من العمر أربع سنوات خشية أن تكون حرامًا، فقد كان صلى الله عليه وسلم حريصًا على تربية حفيده على ترك الحرام منذ الصّغر، فنهاه عن الأكل من تمر الصّدقة، مبيّنًا له حكمه، وأنّه لا يجوز للنّبيّ صلى الله عليه وسلم وآله الأكلُ من الصّدقات، وأمره أن يرمي التمرة من فيه، وهذا من أفضل دروس التّربية؛ إذ لم يسوّف الأمر قائلًا: قد جعلها في فيه فلا بأس عليه، أو لا يزال طفلًا صغيرًا وهو غير مكلّف، بل أدّبه وربّاه؛ لينشأ على العمل الصّالح، ولنا في رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوةٌ حسنةٌ في تربية أولادنا على أحكام الإسلام منذ الصّغر.

---

(١) سورة الزخرف، الآية: ٢٣.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٧٠.
(٣) سورة التحريم، الآية: ٦.
(٤) رواه البخاريّ في صحيحه، عن أبي هريرة، حديث رقم: ١٤٩١، كتاب: الزكاة، باب: ما يذكر في الصدقة للنبيّ صلى الله عليه وسلم.

مشاهد من السّيرة في نبذ التّقليد الأعمى:

قصّة أبي العاص بن الربيع- ختن رسول الله ﷺ

كَانَ أَبُو الْعَاصِ مِنْ رِجَالِ مَكَّةَ الْمَعْدُودِينَ: مَالًا، وَأَمَانَةً، وَتِجَارَةً، وَكَانَ لِهَالَةَ بِنْتِ خُوَيْلِدٍ، وَكَانَتْ خَدِيجَةُ خَالَتَهُ. فَسَأَلَتْ خَدِيجَةُ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَنْ يُزَوِّجَهُ، وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لَا يُخَالِفُهَا، وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يَنْزِلَ عَلَيْهِ الْوَحْيُ، فَزَوَّجَهُ، وَكَانَتْ تَعُدُّهُ بِمَنْزِلَةِ وَلَدِهَا. فَلَمَّا أَكْرَمَ اللهُ رَسُولَهُ ﷺ بِنُبُوَّتِهِ آمَنَتْ بِهِ خَدِيجَةُ وَبَنَاتُه، فصدّقنه، وَشَهِدْنَ أَنَّ مَا جَاءَ بِهِ الْحَقُّ، وَدِنَّ بِدِينِهِ، وَثَبَتَ أَبُو الْعَاصِ عَلَى شِرْكِهِ.

سَعْيُ قُرَيْشٍ فِي تَطْلِيقِ بَنَاتِ الرَّسُولِ مِنْ أَزْوَاجِهِنَّ:

كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ قَدْ زَوَّجَ رُقَيَّةَ، وأُمَّ كُلْثُومٍ من ابنيّ عمّهما أَبِي لَهَبٍ: عتبة، وعتيبة. فَلَمَّا بَادَى قُرَيْشًا بِأَمْرِ اللهِ تَعَالَى وَبِالْعَدَاوَةِ، قَالُوا: إِنَّكُمْ قد فرّغتم مُحَمَّدًا مِنْ هَمِّهِ، فَرُدُّوا عَلَيْهِ بَنَاتِهِ، فَاشْغَلُوهُ بِهِنَّ. فأمر أبو لهب أولاده بتطليقهما بعنف وشدّة، ومَشَوْا إِلَى أَبِي الْعَاصِ فَقَالُوا لَهُ: فَارِقْ صَاحِبَتَكَ وَنَحْنُ نُزَوِّجُكَ أَيَّ امْرَأَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ شِئْتَ، قَالَ: لَا وَاللهِ، إِنِّي لَا أُفَارِقُ صَاحِبَتِي، وَمَا أُحِبُّ أَنَّ لِي بِامْرَأَتِي امْرَأَةً مِنْ قُرَيْشٍ.

وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لَا يُحِلُّ بِمَكَّةَ وَلَا يُحَرِّمُ، مَغْلُوبًا عَلَى أَمْرِهِ، وَكَانَ الْإِسْلَامُ قَدْ فَرَّقَ بَيْنَ زَيْنَبَ بِنْتِ رَسُولِ اللهِ ﷺ حِينَ أَسْلَمَتْ وَبَيْنَ أَبِي الْعَاصِ بْنِ الرَّبِيعِ، إِلَّا أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ لَا يَقْدِرُ أَنْ يُفَرِّقَ بَيْنَهُمَا، فَأَقَامَتْ مَعَهُ عَلَى إِسْلَامِهَا وَهُوَ عَلَى شِرْكِهِ، حَتَّى هَاجَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَلَمَّا صَارَتْ قُرَيْشٌ إِلَى بدر، رافقهم أَبُو الْعَاصِ بْنُ الرَّبِيعِ فَأُصِيبَ فِي الْأُسَارَى يَوْمَ بَدْرٍ، فَكَانَ بِالْمَدِينَةِ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ.

وعَنْ عَائِشَةَ ﵂ قَالَتْ لَمَّا بَعَثَ أَهْلُ مَكَّةَ فِي فِدَاءِ أُسَرَائِهِمْ، بَعَثَتْ زَيْنَبُ بِنْتُ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي فِدَاءِ أَبِي الْعَاصِ ابْنِ الرَّبِيعِ بِمَالٍ، وَبَعَثَتْ فِيهِ بِقِلَادَةٍ لَهَا كَانَتْ خَدِيجَةُ أَدْخَلَتْهَا بِهَا عَلَى أَبِي الْعَاصِ حِينَ بَنَى عَلَيْهَا، قَالَتْ: فَلَمَّا رَآهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ رَقَّ لَهَا رِقَّةً شَدِيدَةً وَقَالَ: إِنْ رَأَيْتُمْ أَنْ تُطْلِقُوا لَهَا أَسِيرَهَا، وَتَرُدُّوا عَلَيْهَا مَالَهَا، فَافْعَلُوا، فَقَالُوا: نَعَمْ يَا رَسُولَ اللهِ. فَأَطْلَقُوهُ، وَرَدُّوا عَلَيْهَا الَّذِي لَهَا. وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ قَدْ أَخَذَ عَلَيْهِ... أَنْ يُخَلِّيَ سَبِيلَ زَيْنَبَ إِلَيْهِ، أَوْ كَانَ فِيمَا شَرَطَ عَلَيْهِ فِي إِطْلَاقِهِ، وَلَمْ يَظْهَرْ ذَلِكَ مِنْهُ وَلَا مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَيُعْلَمُ مَا هُوَ، إِلَّا أَنَّهُ لَمَّا خَرَجَ أَبُو الْعَاصِ إِلَى مَكَّةَ وَخَلَّى سَبِيلَهُ، بَعَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ زَيْدَ ابْنَ حَارِثَةَ وَرَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ مَكَانَهُ، فَقَالَ: كُونَا بِبَطْنِ يَأْجَجَ حَتَّى تَمُرَّ بِكُمَا زَيْنَبُ، فَتَصْحَبَاهَا حَتَّى تَأْتِيَانِي بِهَا. فَخَرَجَا مَكَانَهُمَا، وَذَلِكَ بَعْدَ بَدْرٍ بِشَهْرٍ أَوْ شَيْعِهِ[1]، فَلَمَّا قَدِمَ أَبُو الْعَاصِ مَكَّةَ أَمَرَهَا بِاللُّحُوقِ بِأَبِيهَا، فَخَرَجَتْ تَجَهَّزَ.

وَأَقَامَ أَبُو الْعَاصِ بِمَكَّةَ، وَأَقَامَتْ زَيْنَبُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِالْمَدِينَةِ، حِينَ فَرَّقَ بَيْنَهُمَا الْإِسْلَامُ، حَتَّى إِذَا كَانَ قُبَيْلَ الْفَتْحِ، خَرَجَ أَبُو الْعَاصِ تَاجِرًا إِلَى الشَّامِ، وَكَانَ رَجُلًا مَأْمُونًا، بِمَالٍ لَهُ وَأَمْوَالٍ لِرِجَالٍ مِنْ قُرَيْشٍ، أَبْضَعُوهَا مَعَهُ، فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ تِجَارَتِهِ وَأَقْبَلَ قَافِلًا، لَقِيَتْهُ سَرِيَّةٌ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ، فَأَصَابُوا مَا مَعَهُ، وَأَعْجَزَهُمْ هَارِبًا، فَلَمَّا قَدِمَتِ السَّرِيَّةُ بِمَا أَصَابُوا مِنْ مَالِهِ، أَقْبَلَ أَبُو الْعَاصِ تَحْتَ اللَّيْلِ حَتَّى دَخَلَ عَلَى زَيْنَبَ بِنْتِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَاسْتَجَارَ بِهَا، فَأَجَارَتْهُ، وَجَاءَ فِي طَلَبِ مَالِهِ، فَلَمَّا خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى الصُّبْحِ فَكَبَّرَ وَكَبَّرَ النَّاسُ مَعَهُ، صَرَخَتْ زَيْنَبُ مِنْ صُفَّةِ النِّسَاءِ: أَيُّهَا النَّاسُ، إِنِّي قَدْ أَجَرْتُ أَبَا الْعَاصِ بْنَ الرَّبِيعِ. قَالَ: فَلَمَّا سَلَّمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنَ الصَّلَاةِ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ، فَقَالَ:

(١) الشَّيْع: المقدار، يقال: أقام فلان شهرًا أو شَيْعَه. الصحاح للجوهري (١٢٤٠/٣).

أَيُّهَا النَّاسِ، هَلْ سَمِعْتُمْ مَا سَمِعْتُ؟ قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: أَمَا وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ مَا عَلِمْتُ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ حَتَّى سَمِعْتُ مَا سَمِعْتُمْ، إِنَّهُ يُجِيرُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ أَدْنَاهُمْ. ثمّ انْصَرَفَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَدَخَلَ عَلَى ابْنَتِهِ، فَقَالَ: أَيْ بُنَيَّةُ، أَكْرِمِي مَثْوَاهُ، وَلَا يَخْلُصَنَّ إِلَيْكَ، فَإِنَّكَ لَا تَحِلِّينَ لَهُ.

ثمّ إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ بَعَثَ إِلَى السَّرِيَّةِ الَّذِينَ أَصَابُوا مَالَ أَبِي الْعَاصِ، فَقَالَ لَهُمْ: إِنَّ هَذَا الرَّجُلَ مِنَّا حَيْثُ قَدْ عَلِمْتُمْ، وَقَدْ أَصَبْتُمْ لَهُ مَالًا، فَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَرُدُّوا عَلَيْهِ الَّذِي لَهُ، فَإِنَّا نُحِبُّ ذَلِكَ، وَإِنْ أَبَيْتُمْ فَهُوَ فَيْءُ اللهِ الَّذِي أَفَاءَ عَلَيْكُمْ، فَأَنْتُمْ أَحَقُّ بِهِ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، بَلْ نَرُدُّهُ عَلَيْهِ، فَرَدُّوهُ عَلَيْهِ... ثمّ احْتَمَلَ إِلَى مَكَّةَ، فَأَدَّى إِلَى كُلِّ ذِي مَالٍ مِنْ قُرَيْشٍ مَالَهُ، وَمَنْ كَانَ أَبْضَعَ مَعَهُ، ثمّ قَالَ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، هَلْ بَقِيَ لِأَحَدٍ مِنْكُمْ عِنْدِي مَالٌ لَمْ يَأْخُذْهُ، قَالُوا: لَا. فَجَزَاكَ اللهُ خَيْرًا، فَقَدْ وَجَدْنَاكَ وَفِيًّا كَرِيمًا قَالَ: فَأَنَا أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَاللهِ مَا مَنَعَنِي مِنَ الْإِسْلَامِ عِنْدَهُ إِلَّا تَخَوُّفُ أَنْ تَظُنُّوا أَنِّي إِنَّمَا أَرَدْتُ أَنْ آكُلَ أَمْوَالَكُمْ، فَلَمَّا أَدَّاهَا اللهُ إِلَيْكُمْ وَفَرَغْتُ مِنْهَا أَسْلَمْتُ. ثمّ خَرَجَ حَتَّى قَدِمَ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَرَدَّ عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ زَيْنَبَ[1].

في السّلوك

الإشارة: اعلم أنّ الحقّ تعالى جعل للبشريّة قُوتًا ونعيمًا تتنعّم به، وجعل للرّوح قوتًا ونعيمًا تتلذّذ به، فقُوت البشريّة الطّعام والشّراب، ونعيمُها: الملابس والمَناكح والمَراكب. وقوت الرّوح: اليقين والعلوم والأنوار، ونعيمها: الشّهود والاستبصار، والتّرقي في المعارف والأسرار، فكما أنّ النّفس تأكُل ممّا في الأرض حلالًا طيّبًا، كذلك الرّوح تأكل ممّا في الأرض حلالًا طيّبًا، إلا أنّ أكل النّفس حِسيّ، وأكل الرّوح معنويّ، وهو التفكّر والاعتبار بأسماء الله الحسنى، أو الشّهود والاستبصار.

الإشارة: وإذا قيل لمن أكَبَّ على دنياه، واتّخذ إلهه هواه، فأشرك في محبّة الله سواه: أقلِعْ عن حظوظك وهواك، وأفرد الوجهة إلى مولاك، واتّبع ما أنزل الله من وجوب مخالفة الهوى ومحبّة المولى، قال: بل اتّبع ما وجدتُ عليه الآباء والأجداد، وأكبَّ عليه جلُّ العباد، فيقال له: أتتّبعهم في متابعة الهوى، ولو كانوا لا يعقلون شيئًا من طرق الهدى؟ وقد قال ﷺ: ﴿لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا جِئْتُ بِهِ﴾[2].

الإشارة: إذا تمكّن الهوى من القلوب عَزَّ دواؤه وشقّ علاجه، وعظم على الأطباء عناؤه، فالمنهمكون في الغفلة لا ينفَع فيهم التّذكير، ولا ينجح فيهم التّخويف والتّحذير، فالواعظ لهم كالنّاعق بالبهائم التي لا تسمع إلا دعاء ونداء، قد أعماهم الهوى، وأصمّهم عن سماع أسباب الهدى. **(إِنَّ الْهَوَى مَا تَوَلَّى يُصْمِ أَوْ يَصِمِ)**، فلا يُقلع الهوى من قلوبهم إلا بسابق العناية، أو هبوب ريح الهداية، فتثير في قلوبهم خوفًا مُزْعِجًا، أو شوقًا مُقْلِقًا، أو نُورًا خارقًا وَما ذلِكَ عَلَى اللهِ بِعَزِيزٍ.

(١) ذكره ابن هشام في السيرة، ج١، ص٦٥٢-٦٥٥ بتصرّف، والمباركفوريّ في الرّحيق المختوم، ج١، ص٧٥.
(٢) رواه النوويّ في الأربعين النوويّة، عن عبد اللّه بن عمرو بن العاص، حديث رقم: ٤١، باب: متن الأربعين النوويّة من الأحاديث الصّحيحة، الحديث حسن صحيح.

في الإعجاز العلميّ

في أشراط السّاعة

في الأدعية والأذكار

"اللَّهُمَّ اكْفِنِي بِحَلَالِكَ عَنْ حَرَامِكَ، وَأَغْنِنِي بِفَضْلِكَ عَمَّنْ سِوَاكَ"[1].

"اللَّهُمَّ أَلْهِمْنِي رُشْدِي، وَأَعِذْنِي مِنْ شَرِّ نَفْسِي"[2].

الآيات من 172-173

الحلال والحرام في المآكل

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾﴾.

وجه الارتباط بالآيات السّابقة

بيّن الله تعالى في الآيات السابقة حال الذين يتّخذون الأنداد من دون الله يحبّونهم كمحبّة الله، وأشار إلى أنّ سبب ذلك هو حبّ حطام الدنيا، وارتباط صالح المرؤوسين بمصالح الرُّؤساء في الرّزق والجاه، وخاطب النّاس كلّهم بأن يأكلوا ممّا في الأرض، إذْ أباح لهم جميع خيراتها وبركاتها، بشرط أن تكون حلالاً طيباً، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا﴾[3]، وبيّن سوء حال الكافرين المقلّدين، الذين يقودهم الرؤساء كما يقود الراعي الغنم، لأنّهم لا استقلال لهم في عقل ولا فهم، ثم وجّه الخطاب في هذه الآيات للمؤمنين خاصة، لأنّهم أحقّ بالفهم، وأجدر بالعلم، وأحرى بالاهتداء.

المعنى العام

يقول تعالى آمرًا عباده المؤمنين بالأكل من لذيذ طيّبات ما رزقهم ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾، وقفوا عند ما أُحلّ لكم ولا تحرّموا باجتهادكم ما أحللنا لكم، كما فعل من سلف قبلكم. كما أمرهم أن يشكروه ﴿وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ واشكروا نعمة الله عليكم الظّاهرة والباطنة إن كنتم إيّاه تعبدون، فقد أحللنا لكم الكثير من الطيّبات على هذه الأرض، فالأكل من الحلال سبب لتقبّل الدّعاء والعبادة، أمّا الأكل من الحرام فيمنع قبول ذلك.

بعد أن منّ الله تعالى عليهم برزقه وأرشدهم إلى الأكل من طيّبه، ذكر أنّه لم يحرّم عليهم من ذلك إلا ما فيه ضررهم كالميْتة، ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ﴾ لخبثها، وهي التي تموت حتف أنفها من غير تذكية، سواء كانت منخنقة، أو موقوذة، أو متردّية،

(١) رواه الحاكم في المستدرك، عن علي، حديث رقم: ١٩٧٣، كتاب: الدعاء، والتكبير، والتهليل، والتسبيح، والذكر، باب: وأمّا حديث رافع بن خديج، الحديث إسناده صحيح.

(٢) رواه التّرمذيّ في سننه، عن عمران بن حصين، حديث رقم: ٣٤٨٣، كتاب: أبواب الدعوات، الحديث غريب.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٦٨.